محمد م. الارناؤوط

دراسة حالة ـ ٢ ـ

حوار/صراع الحضارات: دور الاستشراق في النموذج اليوغسلافيّ

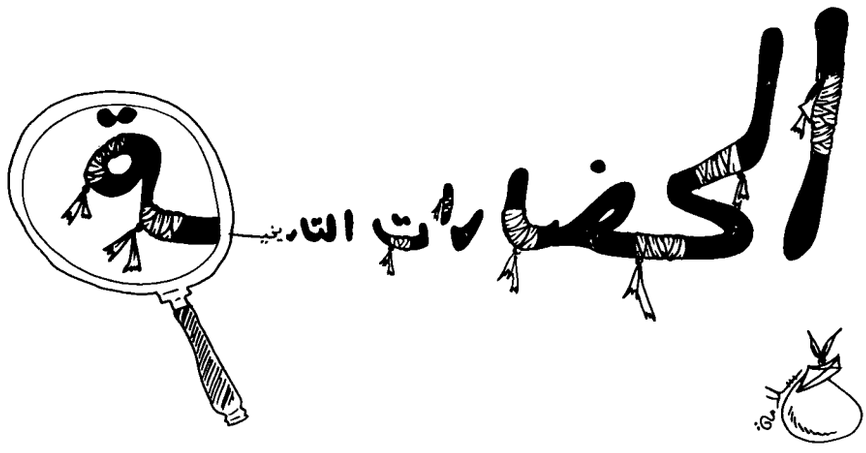

«لا يمكن القولُ عن أيّ دينٍ إنه يمثّل تهديداً للحضارة الغربية، بمثلِ التوكيدِ الشديدِ الذي يُعْتَمَدُ الآن عند الحديث عن الإسلام»

إدوارد سعيد، تغطية الإسلام

«لماذا تصرُّون، أيها الغربيون، على أن يعيش الصربُ مع المسلمين؟ الصرب والمسلمون يُشْبهون القطَّ والكلبَ، وهم لا يستطيعون أن يعيشوا معاً في سلام».

رادوفان كاراجيتش، ١٩٩٣

«لقد بُذلتْ دعايةٌ كبيرةٌ لكي يبدأوا [في يوغسلافيا] أولَ الأمر بالخوف واحدُهم من الآخر: لقد بدأتِ الحربُ بالخوف، وانتهتْ بالإبادة الجماعيّة».

دايڤيد ريف، ١٩٩٣

«المسلمون في البوسنة والهرسك كانوا ضحيةَ إبادةٍ جماعيّةٍ، وفي قلب هذه المأساة كانت الايديولوجيةُ القوميةُ الصربيةُ المتأثرةُ كثيراً بالاستشراق [الصربيّ]».

نورمان تسيغار، ١٩٩٥

«إذا تابع المستشرقون الصربُ دعمَهم الثقافيّ لمزيدٍ من الاضطهاد للمسلمين في يوغسلافيا، فإنّ هذا يزيد من مسؤوليتهم في أحد أكثر الفصول الأوروبيّة ساديةً في القرن العشرين».

نورمان تسيغار، ١٩٩٥

«لقد نجح ميلوشيڤيتش للأسف في حالة معيّنة: فقد خَلَقَ حقداً أبدياً بين الصرب والسكان الآخرين في يوغسلافيا السابقة. ولا يمكن إجراءُ المصالحة إلا بعد إزاحة ميلوشيڤيتش، وبعد أن يفكّر الشعبُ الصربيُّ بالمغامرة الشنيعة التي سَمَحَ لنفسه بالانجرار إليها».

نوڤيل اوبسرڤاتور، ١٩٩٩

«لو أردتُ أن أكتب كما كَتَب غيري، لأصبحتُ وزيراً».

المستشرق الصربيّ راده بوجوڤيتش، ١٩٩٧

تقديم: التكوّن

كما في لبنان الذي كان يُدعى «سويسرا الشرق»، وكذلك في يوغسلافيا التي كانت تُعتبر ملتقى الحضارات للشرق والغرب، لم يكن من السهل تصوُّرُ التحوُّل السريع من النقيض إلى النقيض: من الاعتزاز بالتعايش مع الآخر، إلى الخوف من الآخر ومن ثمّ التخلُّص منه بكلّ بساطةٍ وبشاعة. وكما في لبنان الذي كان يَخْشى البلقنة، وكذلك في يوغسلافيا التي أصبحتْ تخشى اللبننة، كان هناك في كل طرفٍ مَنْ تولّى الإعدادَ لما هو آتٍ، وبالتحديد: التحضيرَ والتنظيرَ لما هو آتٍ، وتبريرَ ما سيحدث لاحقاً. وفي هذا الإطار تستحقّ التجربةُ اليوغسلافيةُ اهتماماً خاصاً بدور الاستشراق في التحوُّل من النقيض إلى النقيض، وأَعْني: من التنظير لـ «حوار الحضارات» وتعايشها، إلى التنظير والتبرير لـ «صراع الحضارات» الذي أدّى إلى أكبر مأساةٍ في أوروبا في النصف الثاني للقرن العشرين.

وتجدر الاشارةُ إلى أنّ يوغسلافيا قد تشكّلتْ عام ١٩١٨ من أقاليمَ متنوعةٍ في تكوينها الحضاريّ بحُكم الموقع الذي شغلتْه في أوروبا. فقد أسهم التداخلُ بين الإمبراطوريتيْن البيزنطية والرومانية، والكنيستيْن الشرقيّة (الأرثوذكسيّة) والغربيّة (الكاثوليكيّة)، والإمبراطوريتيْن العثمانيّة (المسلمة) والنمساويّة (المسيحيّة)، في التكوين الإثنيّ والدينيّ والثقافيّ لشعوب المنطقة. ومن ثم جَمَعَتْ يوغسلافيا عامَ ١٩١٨ من الطموح (دولة واحدة، أمة واحدة) أكثرَ بكثيرٍ مما يحتمله واقعُها المتنوِّعُ والمتعدِّدُ. وربما كان الإصرارُ على عدم الاعتراف بواقعها هذا هو من أهم أسباب فشلِ يوغوسلافيا الأُولى (الملكيّة) في عام ١٩٤١، وتفتُّتِها إلى عدةِ دولٍ.

وقد جاء المشروعُ اليوغسلافيُّ الجديد الذي قاده اليسارُ خلال الحرب العالميّة الثانيّة (١٩٤١ ـ ١٩٤٥) ليعبِّر عن طموحٍ جديد: هو الإقرارُ بالتعدُّد، وتبنّي المبدإ الفدراليّ ليوغسلافياً جديدةٍ تَعْترف بالخصوصيّات الإثنيّة والدينيّة والثقافيّة للشعوب المكوِّنة لها. وهكذا وُلدتْ في عام ١٩٤٥ جمهوريةُ يوغسلافيا الفدراليّة وسطَ مخاضٍ صعبٍ لم تستطع أن تتخلّص فيه تماماً من تركة يوغسلافيا القديمة. ولكنْ على الرغم من ذلك تميَّزتْ يوغسلافيا الجديدةُ، وخاصةً بعد تخلُّصِها من الستالينيّة عامَ ١٩٤٨ وتحوُّلِها نحو العالم الثالث ودولِ عدم الانحياز، بالانفتاح على الآخر (غيرِ الموجود أو غيرِ المرغوب فيه في يوغسلافيا القديمة)، وبأداءِ دورٍ مميزٍ سواء على مستوى البلقان أو على مستوى العالم الثالث ودول عدم الانحياز مع تطوُّر الحرب الباردة. وهكذا أصبحتْ يوغسلافيا تمثِّل وتؤدي دورَ الوسيطِ والجسرِ السياسيّ والثقافيّ ما بين الشرق والغرب، سواءٌ بالمعنى السياسيّ (الإيديولوجيّ) أو الحضاريّ الواسع.

الاستشراق الجديد

وفي هذا الاطار يمكن القول إنّه أخذ يتأسَّس ويَبْرز استشراقٌ جديدٌ في يوغسلافيا الفدراليّة. ومع أنّ أول قسمٍ للاستشراق كان قد تأسَّس في جامعة بلغراد خلال عامِ ١٩٢٢، فإنّ التطوُّر الحقيقيّ للاستشراق الجديد لم يَبْرز إلا بعد عام ١٩٤٥. فبعد الاعتراف بالبوسنة كجمهوريّةٍ ذاتِ خصوصيّةٍ (وهو ما لم يكن وارداً في يوغسلافيا القديمة) تأسَّس في سراييفو عامَ ١٩٥٠ «معهدُ الاستشراق»، وقسمٌ آخر للاستشراق في جامعة سراييفو، وقسمٌ ثالثٌ للاستشراق عام ١٩٧٣ في جامعة بريشتينا بعد أن حصل الألبانُ في كوسوفو على حكمٍ ذاتيٍّ واسعٍ (وهو ما لم يكن وارداً هو أيضاً في يوغسلافيا القديمة).

ومع هذا التطوُّر تكوَّن وبَرزَ جيلٌ جديدٌ من المستشرقين الذين فهموا الاستشراقَ على نحوٍ مغاير. وقد عبَّر المستشرق المرحوم د. سليمان غروزدانيتش عن هذا الموقف الجديد خلال الاحتفال بمرور ربع قرنٍ على تأسيس «معهد الاستشراق في سراييفو» بالقول إنّ «يوغسلافيا الجديدة، يوغسلافيا عدم الانحياز، بموقعها ومركزها الثقافيّ ـ التاريخيّ، قد اتُّجهتْ نحو التعاون مع جميع بلدان الثقافتيْن/الحضارتيْن اللتيْن تلتقيان وتتداخلان في إطارها، واللتيْن لا بدّ من التعرف عليهما بشكلٍ افضل. ولذلك كانت يوغسلافيا، كرابطة، تَمْلك فرصاً واقعيةً لكي تسهم في تفاهمٍ أوسعَ بين الشعوب من المناطق المختلفة»[1]. والواقع أنّ مئات الدراسات والترجمات التي ظهرتْ في يوغسلافيا بين عامَيْ ١٩٥٠ و ١٩٨٠ كانت تُسهم بحقٍ في التعرُّف على الآخر، سواء على الصعيد اليوغسلافيّ أو البلقانيّ أو العالميّ، وذلك من موقع الرغبة في المعرفة التي تعزِّز الصلةَ بالآخر، لا من موقع الرغبة في فرضِ السيطرة والهيمنة. وهكذا، وبفضل هذا الاستشراق، أصبح في الإمكان أن يتعرَّف القارئُ الصربيُّ في بلغراد بشكلٍ أفضلَ على ثقافةِ وخصوصيةِ الألبان والأتراك والبشانقة (الذين لم يكن يعرفهم على حقيقتهم في السابق أو لم يُرَدْ له أن يعرفهم دون كراهيةٍ) كما يَعْرف لأولِ مرّةٍ ثقافةَ وخصوصيةَ الشعوب الأخرى في الشرق والغرب.

ولكنْ بعد وفاة تيتو (١٩٨٠) وصعودِ المدّ القوميّ (الصربيّ والألبانيّ والكرواتيّ الخ) في يوغسلافيا، بدأ الاستشراقُ اليوغسلافيُّ يَتَقَوْمَن ويتسيَّس، أيْ يَدْخل في اللُّعبة السياسيّة ـ القوميّة الجديدة في يوغسلافيا ما بعد تيتو. وفي هذا الإطار أخذ في منتصف الثمانينيّات يتشكَّل في بلغراد تحالفٌ قوميٌّ ثلاثيٌّ ما بين رؤوس الثقافة («رابطة الكتاب في صربيا»، و«الأكاديميّة الصربيّة للعلوم والفنون»)، والكنيسةِ الصربيّة ذاتِ التقاليدِ القوميّةِ في التاريخ الصربيّ، والمؤسسةِ العسكريّةِ اليوغسلافيّةِ التي بقيت لاعتباراتٍ عديدةٍ تحت النفوذ الصربيّ.. وهو [أيِ التحالف] الذي وَصَلَ

١ ـ Sulejman Grozdanic: "Orijentalni institut u Sarajevu", **POF** XXV, 1975, Sarajevo 1977, p. 14.

انتقل الاستشراق الصربيُّ ابتداءً من الثمانينيَّات
من التنظير لحوار الحضارات، إلى التنظير لصراع الحضارات واستحالة التعايش بينها

بواسطته سلوبودان ميلوشيڤيتش إلى السلطة عام ١٩٨٧. وفي هذا الإطار جاءت مذكّرةُ «الأكاديميَّة الصربيَّة للعلوم والفنون» التي «تسرَّبتْ» إلى الصحافة، وأحدثتْ صدمةً آنذاك في كلّ يوغسلافيا، لتعبِّر عن الوعي أو التوجُّهِ القوميِّ الصربيِّ الجديد، ومؤدّاه: أنَّ الصِّرب الأرثوذكس في يوغسلافيا الأرثوذكسية هم ضحيَّةٌ لتآمر الآخرين (والمقصود: الألبان والبشانقة والكروات والسلوڤين ـ المسلمون والكاثوليك). وهكذا أصبحتْ كلُّ الإصلاحات السياسيَّة التي حَدَثَتْ في يوغسلافيا الجديدة التيتوية تُدْرَج ضمن «نظرية المؤامرة» على الصرب الذين «ضحّوا بالكثير في سبيل يوغسلافيا». والواقع أنّ الإنفاق المتزايد الذي يَعْتمد على القروض الأجنبية كان قد أوصل البلاد إلى حافة الإفلاس في ١٩٨٠، وأدّى الانخفاضُ السريعُ في المستوى المعيشيّ إلى انتعاش أفكار التآمر لدى كل طرفٍ ضد الآخر في يوغسلافيا.

وفي هذا الجو المشبَع بالشكوك بالآخر، وبالشعور بالغبن والاندفاع وراء مشروع منقذٍ، كانت كاريزميةُ ميلوشيڤيتش تقود مشروعاً جديداً لـ «إنقاذ» الصرب من «الخطر» الذي يهدِّدهم. ومع السيطرة على وسائل الإعلام لم يَبْقَ أمام هذا التحالف سوى أن يسمِّي الخطر (الإسلاميّ) وأن يُقْنع الصربَ به، حتى يبدأ الخوفُ فعلاً من هذا «الخطر»، ومن ثمَّ الاستعدادُ للقتل من أجل إبعاده».

ومع أنّ الاستشراق الصربيّ حتى ذلك الحين لم يكن يشكِّل كتلةً قويَّةً ضمن الاستشراق اليوغسلافيّ، فقد كان له دورٌ مهمّ في هذا التحوُّل الخطير الذي حَدَثَ في صربيا/يوغسلافيا خلال تلك السنوات العصيبة. فالتحالف الصربيُّ المثلَّثُ المذكور لم يكن يستطيع أن يقوم بما قام به لولا أولئك المستشرقون الذين رضوا أن يقوموا بهذا الدور على مستويات مختلفة، وأبرزُهم: ألكسندر بوبوڤيتش، وداركو تانا سكوڤيتش، وميرولوب يڤيتيش. وذلك لأنَّ هؤلاء المستشرقين كانوا يمثِّلون في نظر الآخرين «المرجعيةَ» في كلّ ما يتعلَّق بالشرق والإسلام، الأمر الذي يعني أنّ كل رأيٍ أو موقفٍ لهم كان يَخْدم بشكلٍ مباشرٍ المشروعَ العتيد. وللأسف لم يقتصر دور هؤلاء على التنظير/التحضير لما كان يُعَدّ، وإنّما تعدّى ذلك إلى تبريره أيضاً ـ وهذا هو الأمر الأخطر. وهكذا انتقل هذا الاستشراقُ من النقيض إلى النقيض: من التنظير لحوارِ الحضارات وتعايشها، إلى التنظير لصراع الحضارات واستحالةِ التعايشِ في ما بينها.

حالة ميرولوب يڤتيتش

وفي هذا الإطار سنأخذ، كنموذج على ذلك، المستشرقَ الصربيَّ ميرولوب يڤتيتش Miroljub Jevtic الأستاذ في جامعة بلغراد، الذي فاق الآخرين بما نَشَرَه خلال تلك الفترة.

بدأ يڤتيتش اهتماماتِه الأكاديميَّةَ حول الإسلام والعالم الإسلاميّ في الفترة التي أخذ يتشكَّل فيها التحالفُ المثلَّثُ. فقد نَشَرَ خلال ١٩٨٦ فقط عدةَ دراساتٍ كـ «حقوق الإنسان في البلدان الإسلاميَّة» و«النظام القانونيّ لمنظمة المؤتمر الإسلاميّ» و«الأسس الدينيَّة ـ السياسيَّة لمنظمة المؤتمر الإسلاميّ». ولكنَّه أخذ يندرج بشكلٍ مباشرٍ في مشروع هذا التحالف منذ عام ١٩٨٩ حين نَشَرَ كتابه **الجهاد المعاصر كحرب**[١]. ومن المهم هنا الإشارةُ إلى أنّ هذا الكتاب الخطير رُوِّج لدى الرأي العامّ في صربيا بفضل المستشرق الصربيّ المعروف داركو تانا سكوڤيتش، الذي اعتَبَرَه «أفضلَ وأشملَ دراسةٍ للكتلة الإيديولوجية ـ الدينيَّة للإسلام الراديكاليّ المسيَّس». وبعبارةٍ أخرى كان من الضروريّ لمستشرقٍ معروفٍ و«موثوق» لدى الصرب كـ «تانا سكوڤيتش» أن يقيِّم الكتابَ بهذا الشكل كي يجعل الرأيَ العامَّ في صربيا يُصدِّق ما في الكتاب على الرغم من أنَّه كان لا ينسجم مع ما كان يسوِّقه الاستشراقُ اليوغسلافيُّ من قبل. وقد ساعد على ترويج هذا الكتاب اللقاءُ التي أجرتْه مع المؤلِّف المجلةُ البلْغراديةُ ذاتُ الانتشارِ الواسع **دوغا** بمناسبة صدور هذا الكتاب، الذي خصَّتْه بمساحةٍ كبيرةٍ ودعايةٍ قويَّةٍ بعد أن قدَّمتِ المؤلِّفَ للقراء باعتباره «مِنْ أفضل العارفين في يوغسلافيا بالتطوُّرات الإسلاميَّة في العالم»[٢].

وعَبْر هذا اللقاء/الكتاب تمكَّن يڤتيتش من أن يَجْعل الصربَ يتشكَّكون في كلِّ ما كانوا يعرفونه عن الإسلام والعالَمِ الإسلاميّ مِنْ قبلُ، ويكتشفون «الخطرَ» الإسلاميَّ مِنْ حولهم وعليهم. ونظراً لأنَّ مشروع التحالف المثلَّث كان في الأساس ضد تَرِكَة تيتو، فقد بدأ يڤتيتش بنقدِ سياسةِ تيتو في الانفتاح على العالم الثالث (الإسلاميّ) التي أَسْهمت (حسب رأيه) في «استيراد» الأصولية الإسلامية إلى يوغسلافيا. وفي هذا الإطار انتقد يڤتيتش المساعدات التي

١ ـ Miroljub Jevtic: **Savremeni dzihad Kao rat**, Beograd (Nova Knjiga), 1989.

٢ ـ "Dr. Miroljub Jevtic: Rezervisti Alahove Vojske", **Duga**, Beograd, 12, 1989, p. 18.

كانت تقدِّمها بعضُ الدول العربيَّة (كالسعوديَّة والإمارات وليبيا) لأنَّها لم تكن تهدفْ فقط إلى «أسلمة» يوغسلافيا بحسب زعمه بل ـ وهو الأخطر ـ لأنَّها كانت جزءاً من «استراتيجيتهم للسيطرة على العالم، وبالتحديد لخلقِ دولةٍ إسلاميَّةٍ عالميَّةٍ واحدة وضمِّ يوغسلافيا إلى هذه الدولة».

وهكذا أَخَذَ الصربُ يكتشفون من خلال هذا اللقاء/الكتاب أنَّهم مهدَّدون بأن يصبحوا جزءاً من «دولةٍ إسلاميَّةٍ عالميَّةٍ واحدةٍ»، ولكنَّهم أخذوا يشعرون بالرُّعب بعد أن عَرفوا منْ يقْتيتش ما قد يعني ذلك بالنسبة إليهم. فقد أَوْضح لهم الآن أنَّ «الإسلام لا يميِّز بين الأنظمة السياسيَّة؛ فهو ضد يوغسلافيا الشيوعيَّة كما هو ضد فرنسا الرأسماليَّة. ومع أنَّه ثمَّة مكان للإسلام في فرنسا، شرطَ أن يَقْبل المساواةَ وأن يكون مثلَ البوذية والكاثوليكيَّة، فإنّ الإسلام لا يَقْبل مثلَ هذا الوضع لأنَّه يُصرّ على تغييرٍ شاملٍ للعلاقات الاجتماعية. وبعبارة أخرى: إنَّ الإسلام لا يَقْبل أية رؤيةٍ أخرى للعالم، ولذلك فهو خَطَرٌ على كل المجتمعات المعاصرة».

ومع هذا الخوف من تصوُّر العيش مع المسلمين في دولةٍ واحدةٍ (عالميَّة)، يحرِّض يقْتيتش الصربَ ضد المسلمين (البشانقة) الذين يعيشون معهم بالفعل في دولةٍ واحدةٍ (يوغسلافيا) منذ قرون. وهكذا يوضح أنّ «البوسنة المسيحيَّة قد تدمَّرتْ باسم الإسلام، لأنَّ أولئك الذين اعتنقوا الإسلامَ قد خانوا البوسنة»، محوِّلاً ـ بهذا ـ البشانقةَ الذين اعتنقوا الإسلام منذ ٤ ـ ٥ قرون إلى «خونة» في نظر مواطنيهم وجيرانهم الصرب: فهم قد «خانوا» البوسنةَ المسيحيَّة قبل ٤ ـ ٥ قرون، ويمكن أن «يخونوا» يوغسلافيا الآن بسعيهم إلى إقامة دولة إسلاميَّة في البوسنة ثم في بقيَّة يوغسلافيا «ضمن الدولة العالميَّة التي يحلم بها المسلمون!». وهكذا، كما يقول داڤيد ريف في كتابه عن البوسنة، بُذِلتْ دعايةٌ كبيرةٌ لكي يبدأ الناسُ أوَّلَ الأمر في الخوف بعضهم من بعض، إذ إنَّ الحرب بدأتْ بالخوف وانتهت بالإبادة الجماعيَّة[1].

ومع اندلاع الحرب في البوسنة في ربيع ١٩٩٢، وبالتحديد في خضمّ الاندفاع الصربيّ الذي تمثَّل في السيطرة على حوالى ثلثَي البوسنة مع ما ترافق من تطهيرٍ عرقيٍّ بشع، أصدر يقْتيتش كتابَه الآخر والأخطر: **من البيان الإسلاميّ إلى الحرب الدينية في البوسنة**[2]. وكما هو واضحٌ من العنوان، أراد يقْتيتش أن يُثْبت أنّ كتيِّب علي عزّت بغوڤيتش **البيان الإسلاميّ**، وأنّ حزبَ العمل الديموقراطيّ SDA الذي أسَّسه بغوڤيتش، قد أوصلا البوسنةَ إلى الحرب الدينيَّة، لأنَّه «كان لا بدّ للنزاع المسلَّح أن ينفجر؛ إذ إنَّ الهدف الأساسيّ للثورة الإسلاميَّة العالميَّة إنَّما هو تحقيقُ الدولة الإسلاميَّة» (ص ٧). وهكذا بعد أن أوضح يقْتيتش في الكتاب الأول ماذا يعني للصرب أن يَجِدوا أنفسَهم فجأةً ضمن دولة إسلاميَّة، ينتقل في كتابه الآخر إلى تبريرِ ما حَصَلَ بالقول إنَّه «من المنطقيّ أن يؤدي السعيُ إلى خلق دولةٍ إسلاميَّة إلى المقاومة من طَرَفِ كلِّ أولئك الذين ليسوا قريبين من تلك الإديولوجيَّة» (ص ٨).

وفي نهاية هذا الكتاب، وبعد أن يحاول يقْتيتش إقناعَ الصرب بأنَّ ما يحدث هو مؤامرةٌ إسلاميَّةٌ عالميَّةٌ، يصل إلى بثّ الخوف لدى كلّ الصرب في يوغسلافيا، لأنَّ الأمر ـ في نظره ـ لا يقتصر على «دولة إسلاميَّة» في البوسنة بل ينسف كلَّ الوجود غير المسلم حول البوسنة للتواصل بسهولة مع بقية العالم، «ولذلك كان من الضروريّ تحطيمُ صربيا أيضاً» (ص ٢١١). وهكذا، بعد كل هذا الشحن للصرب ضد المسلمين في **كل** يوغسلافيا، يصل يقْتيتش إلى تبريرِ ما كان يحصل آنذاك في البوسنة من مجازر بالقول إنَّ الحربَ انفجرتْ في البوسنة لأنَّ «الصرب لم يرغبوا في أن يقدِّموا ما لديهم من سيادةٍ هديةً إلى المسلمين» الذين كانوا يريدون خلقَ «دولةٍ إسلامية»؛ ولذلك «فقد كان على الصرب أن يَمْنعوا ذلك بالقوة المسلّحة» (ص ٢٢٠).

لقد كان هذا الكتابُ يَخْدم في الواقع مشروعَ التحالف المثلَّث في خلقِ دولةٍ صربيَّةٍ كبرى (صربيا الكبرى)، وذلك بالتركيز على استحالة التعايش بين الصرب والبشانقة، وبالتحديد بين الأرثوذكس والمسلمين؛ وأصبحت البوسنةُ هي الساحة لإثبات ذلك على الأرض. وفي هذا الاطار تحوَّل ما كان يحذِّر منه يقْتيتش إلى «حقائق» على الأرض، بفضل رادوفان كاراجيتش وراتكو ملاديتش وغيرهما من مجرمي الحرب.

إلا أنَّ يقْتيتش بعد ترويجه في الكتاب السابق لمقولة «الحرب الدينيَّة» التي فُرضتْ على الصرب في البوسنة بسبب سعي المسلمين إلى خلق «دولة إسلاميَّة»، أخذ يطوِّر مقولته باتجاه «الصراع الحضاريّ» في وقتٍ متزامنٍ مع صدور مقالة صموئيل هنتنغتون الشهيرة وما أثارته من ردودٍ مختلفة.

وهكذا ألقى في مطلع ١٩٩٥ محاضرةً بعنوان «صراع الحضارات في البلقان» في يودغوريتسا عاصمةِ الجبل الأسود، أيْ في الجمهورية الأخرى التي بقيتْ مع صربيا ضمن يوغسلافيا الحالية، والتي لم يكن يَنْقصها زيارةٌ أو محاضرةٌ كهذه من يقْتيتش لكي تَلْحق بمصيرِ البوسنة. وتَجْدر الإشارةُ إلى أنّ هذه الجمهوريَّة الصغيرة (حوالى ٦٠٠ ألف نسمة) والمهمةَ في موقعها (فهي تجاورُ البوسنةَ وصربيا والسنجقَ وكوسوڤو وألبانيا) تتميز بتعايشٍ قوميٍّ (مونتنغريّ وبشناقيّ وألبانيٍّ) ودينيّ (أرثوذكسيّ ومسلم وكاثوليكيّ) جيدٍ. ولذلك كان لا بدّ ليقْتيتش من زيارةٍ أو محاضرةٍ كهذه لكي ينسف هذا التعايشَ القائمَ ويؤكِّدَ على ما كان يروِّجه في إطارٍ أوسعَ من السابق.

---

١ ـ داڤيد ريف **مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب**، ترجمة عبد السلام رضوان ومحمد الصاوي الديب، الكويت، مؤسسة الشراع العربيّ، ١٩٩٥، ص ٧٦.

٢ ـ Miroljub Jevtic: **Od Islamske deklaracije do verskog rata u BiH**, Beograd (Filip Visnjic), 1993.

يحرِّض المستشرق الصربيّ يڤتيتش الصَّرْب ضد المسلمين الذين يعيشون معهم منذ قرون في دولة واحدة هي يوغسلافيا

ركَّز يڤتيتش في هذه المحاضرة على نقطةٍ أساسيَّةٍ، ألا وهي أنّ المسلم لا يمكن أن يكون لديه ولاءٌ لأيةِ دولةٍ إذا لم يكن الإسلامُ دينَها. وبعبارةٍ أخرى، يبدو ليڤتيتش وكأنَّ ما حَصَلَ للمسلمين في صربيا والبوسنة غيرُ كافٍ، ولذلك يذكِّر بأنَّ هذا الأمر ينطبق على مسلمي الجبل الأسود أنفسهم: أي إنّ هؤلاء يفتقرون إلى الولاء لهذه الدولة، لأنَّ دينهم (الإسلام) يَفْرض عليهم باستمرارٍ الجهادَ ضدّ الكفّار. وفي هذا السياق يذكِّر الحضورَ بأنّ الجبل الأسود كدولةٍ قام في الأساس خلال الصراع ضد الإسلام، مشيراً في ذلك إلى مذبحة ليلة عيد الميلاد لعام ١٧١١ التي ذُبح فيها كلُّ مسلمٍ رَفَضَ الارتدادَ عن دينه، وبأنَّه «لا يمكن أن يستمر [الجبلُ الأسودُ] كدولةٍ خارج هذا الصراع». وهكذا يصل د. يڤتيتش في نهاية المحاضرة إلى النتيجة التي تستهويه، والتي لا يَكَلُّ عن ترديدها، وهي أنَّ «الحياة المشتركة مع المسلمين مستحيلة». ويَدَع يڤتيتش مستمعيه وقرَّاءَه أمام خيارَيْن: إما أن تصبح مسلماً فتخسرَ نفسَك (حضارَتك وأوروبيتَك)، وإمّا أن تتخلص فوراً من الخطر أو «الوجود الإسلاميّ من حولك». وهكذا يضيف د. يڤتيتش مزيداً من الزيت على النار بالقول إنّ هذه المناطق (الجبل الأسود والبلقان برمته) «سيبتلعها الإسلامُ» قريباً، داعياً على الفور إلى توفير «آلياتٍ دفاعيَّةٍ ضد الإسلام»[١].

ومع أنّ جريدة **مونيتور** المستقلة ذَكَرَتْ آنذاك أنَّ الجمهور الذي حَضَرَ هذه المحاضرة لم يكن كبيراً، فإنَّها لم تقلِّل من خطورة ما قيل بالنسبة إلى الجبل الأسود. ولكنْ بحكم تقاليد التعايش، وبروز المعارضة ضد نظام ميلوشيڤيتش، ونجاح ممثِّل الإصلاح (ميلو جوكانوڤيتش) في انتخابات الرئاسة في عام ١٩٩٧، لم تنجرَّ جمهوريةُ الجبل الأسود إلى ما كان يتمناه يڤتيتش وغيرُه؛ وهذا ما اتَّضح منذ ذلك العام مع تصعيد بلغراد للوضع في الساحة الأخرى لـ «الصراع الحضاريّ» بين الأرثوذكس والمسلمين، وأعني كوسوڤو/كوسوڤا.

وعاد يڤتيتش فنشر عدة مقالات على التحريض ضد الآخر بسبب الدين/الإسلام. وفي هذه المرة لم يَكْتفِ بنشر مقالاته في صربيا، بل نُشرتْ له واحدةٌ في مجلة **نمسيس** Nemesis اليونانيّة عامَ ١٩٩٨ لاستقطاب التأييد اليونانيّ (الأرثوذكسيّ) لـ «معركة» الصرب ضد الألبان (المسلمين) حول كوسوڤو. ويركِّز يڤتيتش في مقالته هذه، وعنوانُها «الأساس التاريخيّ لأزمة كوسوڤو»، على تقسيم تاريخ الألبان إلى قسميْن فقط: قبل الإسلام وبعده. فقبل «أسلمَة» الألبان كان «الصربُ والألبانُ يعيشون في انسجام كامل»، ولم تَسُدْ العلاقات بين الطرفين إلا بعد أن حوَّل الإسلامُ الألبانَ «إلى شعبٍ يرفع الدينَ فوق القوميَّة، وجعلهم برابرة، فلجأوا إلى المجازر ضد المسيحيِّين الصرب واليونان وأجبروهم على الأسلمة». وبالاستناد إلى هذا يرى يڤتيتش أنّ حرب البلقان في ١٩١٢ قد «شنَّتها الدولُ المسيحيَّةُ ضد الدولة العثمانيَّة ليُنهوا جرائمَ المسلمين ضد المسيحيِّين»[٢]. وهكذا لا يرى إلا الاسلامَ وراء كل شرٍ ووراءَ كلِّ إرهاب في المنطقة؛ بل إنّ المعدَّل العالي لازدياد عدد السكّان الألبان في كوسوڤو «إنَّما يعود إلى ولائهم للإسلام». وينفي صفةَ الإرهاب عن المؤسسات والممارسات الصربيَّة في كوسوڤو خلال ١٩٨٩ ـ ١٩٩٩، ويذهب إلى إثبات العكس بمنطقه الخاص، فيقول إنّ «مسيحيي البلقان هم ضحايا انبعاث الأصوليَّة الإسلاميَّة»، وذلك من خلال التلاعب بـ«الحساسيَّة الإسلاميَّة المفرطة للألبان»[٣]. وهكذا يكرِّر يڤتيتش ما قام به في نموذج البوسنة، مع أنَّه هنا يوسِّع من دائرة الاستعداء الأرثوذكسيّ ـ الإسلاميّ لتشمل البلقان، وذلك لكي يبرِّر ما كان يفعله النظامُ في بلغراد طيلة الأعوام الممتدة من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٩.

والحق أن هذه الساحة الجديدة (كوسوڤو/كوسوڤا) قد أكَّدت ارتباطَ هؤلاء المستشرقين بالنظام الذي أوصل الألبانَ والصربَ إلى المأساة ـ الكارثة: وأعني مأساةَ التطهير العرقيّ والتهجيرِ للألبان خلال ١٩٩٨ ومطلع ١٩٩٩، وكارثةَ القصف والتدمير [الأطلسيّ] المنظَّم للبنية التحتيَّة لصربيا/يوغسلافيا في ربيع ١٩٩٩. ولذلك لم يعدْ هناك شكٌّ في أنَّه، مع السقوط القريب لنظام ميلوشيڤيتش (الذي لم يعدْ مقبولاً من أغلبية الصرب، الذين أدركوا الآن إلى أين انجروا)، ومع انتصار الديموقراطية في صربيا، يمكن آنذاك لشعوب البلقان أن تباشر الألفيةَ الجديدة بروحٍ جديدةٍ تقوم من جديدٍ على حوار الحضارات وتعايشها، لا على الصراع الحضارات وتقاتُلِها. □

كوسوڤو (عمّان)

١ ـ "Trumbetaret e lufres Rilindja," (Prishtina) 1.2.1995.

٢ ـ Shaban Sinani: **Kosova ne syrin e ciklonit**, Tirana 1999, pp. 62 - 63

٣ ـ المرجع السابق، ص ٦٥.